كتابي الأول

قصص كتبها ورسمها أطفال فلسطين

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

الفهرس

أبي، هل يعود؟ ٣
الفأر السنجابي الصغير ٣
الحواجز ٣
مذكرات أصيل ٣

© جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

لا يجوز طباعة أو نسخ أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

صدر هذا الكتاب بدعم من جمعية المساعدات الشعبية النرويجية «NPA»

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
ص.ب ١٩٧٣، رام الله - فلسطين
هاتف: ٠٢ ٢٩٨٦١٢١/٢
فاكس: ٠٢ ٢٩٨٨١٦٠
البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com
الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

الطبعة الأولى - ٢٠٠٦

Tamer Institute for Community Education
P.O. Box. 1973, Ramallah - Palestine
Tel: 02 2986121/2
Fax: 02 2988160
E-mail: tamer@palnet.com
Website: www.tamerinst.org

First Edition - 2006

التصميم والإخراج الفني: مؤسسة الناشر للدعاية والإعلان

Design and Layout: Al-Nasher Advertising Agency

مقدمة

وتستمر الحكاية ويستمر أطفالنا في التعبير عن آلامهم وأحلامهم.

كل يوم تنتهك حقوق أطفالنا لكن... رغم المعاناة والفقدان يناضل أطفالنا بالقلم والريشة يبدعون في كتابة قصصهم ورسمها بكل عفوية وجمال وسخرية مُرّة.

ومع اعتزازنا بإبداع أطفالنا نأمل أن تكون قصصهم القادمة أقل سوداوية وأكثر إشراقا وأملا.

؟؟؟؟؟؟؟؟؟
المديرة العامة

تتقدم مؤسسة تامر بالشكر والتقدير لكل من
ساهم باختيار أفضل القصص لإنجاح مسابقة «كتابي الأول» لهذا العام
ونخص بالشكر
ارحام الضامن
ماري فاشة
وسام رفيدي

أبي، هل يعود؟

الاسم : منى عبد الله أحمد
العمر : ١٦ سنة
المؤسسة : دائرة المرأة – نادي خدمات

«على صوتِ الرَّصاصِ ودويِّ المدافعِ عاشَ الطفلُ الفلسطينيُّ يعتصِرُ آلامَهُ ويجدّدُ عزيمَتَهُ لتحقيقِ أَحلامِهِ في محاولَةٍ منهُ لنسيانِ كلِّ ما يُحيطُ بهِ من قتلٍ وتدميرٍ وقلعٍ للأَشجارِ وأَسْرٍ لأَهلِهِ . وهذهِ قصةُ طفلةٍ منَ الأَطفال .

إنها وفاء، ابنةُ الثّالثةِ عشرة، التي خلعتْ ثوبَ الطفولةِ ودخلتْ عالمَ الصِّراعِ قبل أن تخطوَ عتبةَ الشباب».

كانتْ وفاءُ في الصفِّ السابعِ، طالبةً متفوّقةً، رغمَ وجودِ منزلِها على بعدِ أمتارٍ من مستوطنة إسرائيليّة. كانَ أَزيزُ الرَّصاصِ هوَ الجوُّ الذي تعوّدتْ على الدراسةِ فيه. لها أربعةُ أخوةٍ أصغرُ منها سناً، أكَّدتْ وفاءُ أنّهمْ متعوّدونَ على مرورِ الدّباباتِ وسطَ شوارعِ القرية، وأضافتْ تروي قصَّتَها: في ليلةٍ ظلماء، وجوٍّ مليءٍ بالغيومِ السوداء، ليلةَ أربعاء، لا يمكنُ لي نسيانُها أبداً، لأنّها حفرتْ تاريخَها في الصَّخرِ لشدّةِ ما عانيتُهُ فيها من مرارةٍ وحرمان، بعدَ أنْ أُطلِقتْ مكبّراتُ الصّوتِ تأمرُ بإخلاءِ المنزلِ لهدمِه. أَسرعتُ إلى حقيبتي لكيْ أَلحقَ بأهلي، وفجأةً سمعتُ صراخَ أخوتي الصغار، فأَسرعتْ أُمي وهي ترجف، لتضمَّهمْ في حضنِها.

قلتُ في استغراب: ما بك؟ هل حصلَ شيء؟

قالت، وعيناها مليئتانِ بالدّموع: أَخذوا أباك. كبَّلوهُ بالأغلال. إنَّهمْ ينوونَ حبسَه. حاولتُ أنْ أُهدّئَ الموقف، لكنّي لمْ أستَطعْ. أَسرعتُ إلى الشُّرفة. نظرت، فإذا بأبي بينَ أيدي خفافيشِ الظَّلام، تنهالُ عليهِ ضرباً. وبعدَ ربعِ ساعةٍ زرعوا قنابلَهمْ

في زوايا البيت، وذهبوا
وأخذوا معهم روحي
وكياني، أخذوا معهم
أبي. ثم ما لبثنا أن سمِعنا
دويَّ الانفجارات، ورأينا
بيتَنا يتحوَّلُ إلى ركام.

انسحبتْ قواتُ الاحتلالِ
كعادتِها، فهَرولتُ في
اتجاهِ البيتِ، أو الرُّكامِ المتساقطِ على الأرض. نادتْني أمّي بأَعلى صوتِها: وفاء،
إلى أَينَ تذهبين؟

أجبت: إلى البيت.

قالتْ والحزنُ يعتصرُها: أيُّ بيتٍ هذا! لمْ يعدْ يُسمّى بيتاً. عودي يا وفاء، يمكنُ
أن تعثري على إحدى مخلفاتِهمُ الإجراميّة. لا تنقصُنا الآلامُ يا ابنتي.

لم يعدْ لديَّ وقتٌ لمناقشةِ أمي. هيَ لا تدري أني ذاهبةٌ للبحثِ في الركامِ عنْ ذكرياتِ الطفولة. للبحثِ عن صورةِ أبي، هذا الأملُ الذي رسَّخَ لديَّ فكرةً ما زلتُ أذكرُها حتى الآن، فحينما كنتُ حزينةً على استشهادِ خمسةٍ من أبطالِ فلسطين، قالَ أبي بصوتٍ مشبعٍ بألم: وفاء، هؤلاءُ الشهداءُ اصطفاهمْ اللهُ لكيْ يفوزوا بالجنة، والأسرى والجرحى لكي يختبرَ صبرَهم ويَجزيَهمْ أحسنَ جزاء، أما العلماءُ فلكيْ يجتهِدوا في هدايةِ البشر، يعظِّمهمْ في ميدانِ حسناتِهم، لذلك لا تفقِدي الأملَ مهما حصل. دراستُكِ هي مفتاحُ الحياةِ في ظلِّ الاحتلال، وهيَ السلاحُ الوحيدُ الذي تحاربينَ بهِ أعداءَك.

كنتُ أسترجعُ كلماتِ والدي وأنا أجتهدُ في البحثِ عن حقيبتي المدرسيةِ التي لا أدري ما مصيرُها: هل بقيتْ بينَ الركامِ أمْ تلاشتْ معَ الانفجار. لم يبقَ سوى أسبوعٍ على الامتحاناتِ النهائية، ولكني لم أعثرْ على شيء، ولم يكنْ في حوزتي مصباحٌ أو شمعةٌ أعثرُ تحتَ ضوئِها على صورةٍ لأبي أو دفترٍ من دفاتِري المدرسية.

طلبتْ منّا جارتُنا أمُّ محمود أن نَأويَ إلى منزلِها احتماءً منَ البردِ القارصِ ومؤازرةً لنا في وضعِنا الميئوسِ منه، لكنَّ أمي رفضتِ الاقتراح، وأصرَّتْ علي المبيتِ أمامَ المنزل. واستطاعتْ جارتُنا أنْ تقنعَها بأنَّ البيتَ الفلسطينيَّ بيتٌ للجميع، وأنَّ الجوَّ باردٌ على الأطفال.

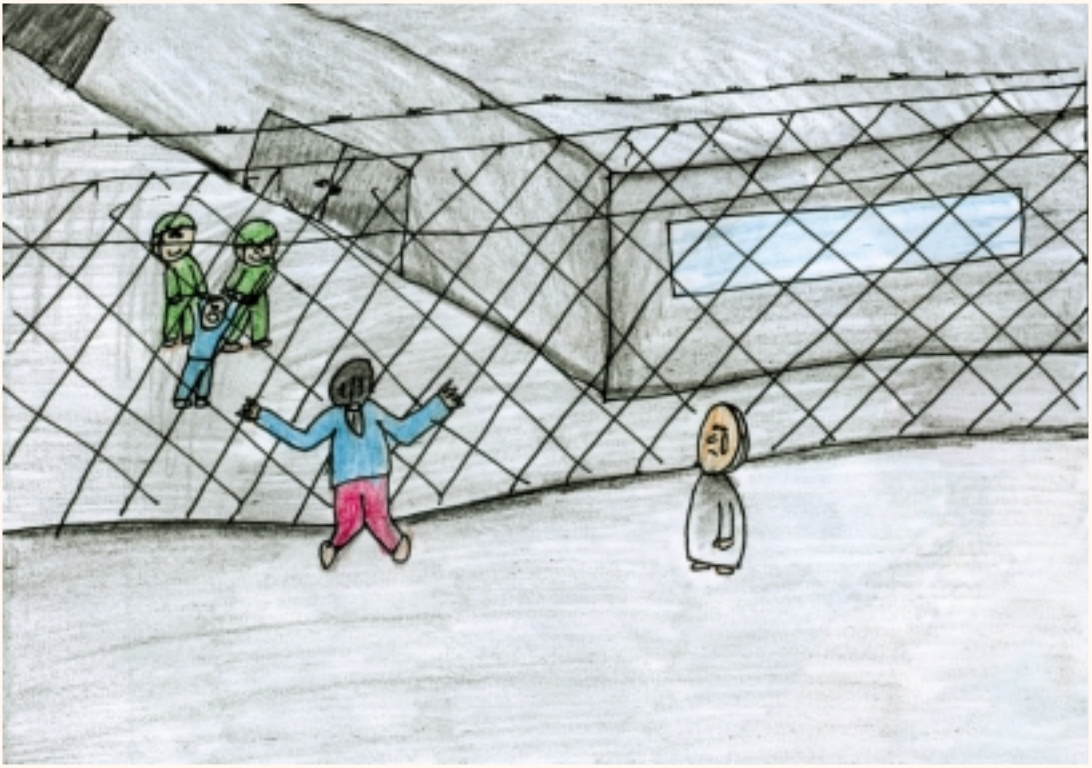

نـامَ الـجـمـيـعُ ومـرَّتِ الساعاتُ وانأ وأمي ننظرُ منَ النّافذةِ المقابلةِ لبيتِنا المدمر. خُيِّلَ لي أنني أرى صـورةَ أبـي بـيـنَ الـركـامِ مـنْ حـيـنٍ إلى آخر، هذهِ الشمعةُ التي بدأتُ أُحسَّ بغيابِها، لكنّي سأجتهدُ أكثرَ مما كنتُ أفعلُ لكي أُثبتَ أَنني لستُ الأولى بينَ الأطفالِ الذينَ دمِّرتْ بيوتُهمْ وتشرَّدتْ عائلاتُهم وأُسِرَ والدُهم، أو حتى سقطَ شهيداً.

في الصباح، ذهبتُ إلى البيتِ المدمّر، وبحثتُ بأقصى طاقتي عن حقيبتي، لكنْ دونَ جدوى. وبعد عناءِ البحثِ عثرتُ على كراسةٍ مدرسيةٍ ممزَّقة. وبعدَ وقتٍ قليلٍ إذا بالصليبِ الأحمرِ يأتي ليشاهدَ ما فعلَهُ العدوُّ الغاصِب، وليساعدَنا في إيجادِ

مأوى لنا. طلبَ منا المسؤولُ أنْ نذهبَ معهُ إلى مقرِّ الصليبِ الأحمر. حملتْنا سيارتُهمْ لكيْ نلتحقَ ونسجلَ ضمنَ ملفِّ ذوي البيوت المدمّرة، وكانَ كلُّ تفكيري في السيارة يدورُ حولَ البيتِ الجديد، فأتخيّلُهُ جميلاً تتعالى فيه أصواتُ العصافيرِ بدلاً من أزيزِ الرصاص. لكني ذُهلت. وقفتِ السيارةُ وطلبَ منا صاحبُها أن نقيمَ في خيمةٍ فارغةٍ بجانبِ عشراتِ الخيامِ التي أقيمتْ لمن دمَّرَ الاحتلالُ منازلَهمْ وجعلَهمْ لاجئينَ حتى في الوطن.

بعدَ يومينِ من وجودِنا في خيمتِنا الجديدة، ذهبتْ أمّي إلى الصليبِ الأحمرِ تسألُ عن أبي، وفي أيِّ سجنٍ وضع. بحثَ الصليبُ الأحمرُ عن اسمِهِ فلم يجدْه، لكنّهمْ طمأنوا

أمي بأنـهـمْ سيبحثونَ عنهُ فـي كـلِّ الـسـجـونِ الإسرائيلـيـة، وسـوفَ يـبـلِّغونَنا عـن وجـودِه. وبعدَ مرورِ أسبوعٍ وصلَ مـوظـفٌ مـن الـصـلـيـبِ الأحمرِ وأبلغَنا أنّهمْ عرفوا مكـانَ والـدي. غـمـرتْنا الفرحةُ جميعاً بشكلٍ لا أستطيعُ أنْ أعبّرَ عنهُ عندما عرفْنا أنّه موجودٌ في سجنِ نفحة العسكري. طلبتْ أمي منهمْ أنْ تزورَه، فقالوا: نحن نقدِّمُ لكمْ طلبَ الزيارة، ثم نبلغُكم إذا سمحوا.

قدَّمنا طلبَ زيارةٍ عشراتِ المراتِ حتى سُمحَ لنا بها. وصلتْنا رسالةٌ منَ الصليبِ الأحمرِ تؤكّدُ السماحَ لأربعةِ أشخاصٍ فقط، مؤكّدينَ على وجودِهِ في سجنِ نفحة العسكري. لمْ نصدّقْ أننا سوفَ نرى أبي. وفي موعدِ الزيارةِ أخذْنا في تجهيزِ أنفسِنا.

لمْ أنمْ طوالَ الليلِ وأنا أفكرُ كيفَ سأقابلُ أبي . وحوالِي الساعةِ الثانيةِ فجراً ذهبتُ أنا و أمي وأخي أحمد وأخي حسام إلى موقعِ السيارةِ التي ستنقلُّنا . حملتْنا السيارةُ المليئةُ بأهالي الأسرى ، لكنَّ العدوَّ لمْ يكملْ فرحتَنا ، فقدْ تعرَّضْنا للتفتيشِ والاستفزاز ، وأوقفونا في عدةِ مواقعَ وحواجز ، وتعرَّضنا للمعاملةِ المهينةِ وغيرِ الإنسانية .

مرّتْ ساعاتٌ وأنا أفكّر : كيفَ سأقابلُ أبي ، وأحاولُ تذكّرَ صورته بعدَ مرورِ فترةٍ على اعتقالِه ، وكيفَ يعاملُ السجانونَ الأسرى ، وما شكلُ المكانَ الذي يُحجزُ فيهِ والدي . أفقتُ على صوتِ صراخِ جنودِ الاحتلال ، مع وصولِنا السجن . طلبوا منّا الانتظار . كانَ وقتاً صعباً جداً مرّ وكأنّهُ سنوات ، وفجأةً سمعتُ صوتَ أبي يحدّثُنا من خلفِ أسلاكٍ شائكة . ومجرّدُ السلامِ كانَ بالأصبع . كانتْ ملامحُه متغيّرةً تماماً ، تظهرُ من خلال وجهِهِ الحزين وجسمِهِ الهزيل . سألَنا عن أحوالِنا ، عن البيتِ الذي هُدم ، وأينَ سكنّا ، وغيرَ ذلكَ منَ الأسئلة . فوجئْنا بالجنودِ يقولون : انتهتِ الزيارة! ثم ما لبِثوا أن أخذوا أبي .

أمسكتُ بالأسلاكِ وناديت : أبي ، هل تعود؟ و إذا بصرختِهِ تهزُّ أسوارَ السجنِ وهو ينادي : وفاء . . . وفاء . كانت آخرَ كلمةٍ أسمعُها منْ والدي هيَ اسمي ، وفاء .

الفأر السنجابي الصغير

الاسم : نيبال ماضي وفاطمة ماضي
العمر : ١٢ سنة
المؤسسة : جمعية أجيال المستقبل – رفح
رسومات : خلود مجدي أبو معيلق
العمر : ١٣ سنة
المؤسسة : مركز البرامج النسائية – الشاطيء

مِنْ بينِ كلِّ الفئرانِ السِّنجابيَّة, كانَ الفأرُ السنجابيُّ الصَّغيرُ أسعدَهمْ على الإطلاقِ وأكثرَهمْ بهجةً وفرحاً ورغبةً دائمةً في اللعبِ واللهوِ ، وذلكَ طولَ فترةِ النّهارِ فقط ! لكنّهُ حينما يأتي المساءُ, كانَ يفقدُ بهجتَهُ ومرحَهُ ويجري

ليختبئَ تحتَ ذقنِ أبيهِ أو ينكمِشَ بينَ ذراعيْ أُمِّه .

لماذا؟

لأنَّ الفأرَ السنجابيَّ الصغيرَ كانَ يخافُ الظُّلمة !

قالَ لهُ أبوهُ ذاتَ مساء : يا بنيَّ، لقدْ كبرتَ الآن، ولا يليقُ بكَ أن تختبِئَ هكذا تحتَ ذقني !

وأضافتْ أُمُّه : يا صغيري، لقد كبرتَ الآن، ولا يليقُ بكَ أنْ تنكمشَ هكذا بينَ ذراعيّ!

ردَّ الفأرُ السنجابيُّ وهوَ يبكي : أعرف، لكنْ ليسَ ذنبي إذا كنتُ أخافُ منَ الظُّلمة .

استشارَ الوالدانِ الدكتورَ «بلبل» طبيبَ الأسرةِ فقالَ لهما : معَ هذا الشرابِ سيتحسنُ حالُه .

استعذبَ الفأرُ السنجابيُّ الصغيرُ كلَّ معلقةٍ منَ الشراب, فقدْ كانَ حلواً . لكنْ حينَما فرغتِ الزجاجةُ كانَ الفأرُ السنجابيُّ الصغيرُ ما يزالُ يخافُ من الظُّلمة !

استشارَ الأبوانِ الدكتورَ «صقر» طبيبَ الأسرةِ النفسيَّ, فقالَ لهما : مع هذا المصباحِ الجميلِ ذي البطاريةِ سيتعدَّلُ حالُه .

ولأولِ مرةٍ في حياتِه, يرى الأبوان ابنَهُما وهو ينتظرُ حلولَ الليلِ بصبرٍ نافذ، ويتعجّلُ قدومَه، لكنْ حينَما أقبلَ المساءُ بدأَ الفأرُ السنجابيُّ الصغيرُ يشعرُ بأنَّ الظِّلالَ والخيالاتِ تندفعُ نحوَهُ كأنَّها تهجِمُ عليهِ، فيجري بسرعةٍ أكبر، ليختبئَ بين ذراعيْ أُمِّه .

زادتْ حيْرةُ الأبوينِ والأَطبّاءِ، ولم يعرِفوا جميعُهمْ ماذا يفعلون! وذاتَ مساءٍ اضطرَّ الأبوانِ إلى الخروج، وعَهِدا بصغيرِهما إلى البومةِ «بومي» لترعاهُ أثناءَ غيابِهما. وقبلَ أنْ يهبِطَ الليل, بدأَ الفأرُ السَنجابيُّ الصغيرُ في البكاء, فغضبتْ «بومي» قليلاً، وقالتْ بشيءٍ منْ نفادِ الصبر: بدلا منْ أن تتباكى هكذا في منديِلك, افتحْ عينيكَ على كلِّ اتساعِهِما, هكذا! وفي الحالِ بدأَ الفأرُ السنجابيُّ الصغيرُ يفتحُ عينيه ويُغلِقُهُما مراتٍ عديدةً وبسرعة، فقالتْ «بومي» وهيَ تضحك: إنَّ منظرَكَ مضحكٌ جداً. وأخذَ الاثنانِ يضحكانِ معا. ثم قالتْ «بومي»: تسلَّقْ فوقَ ظهري. سوفَ أصحبُكَ لتقومَ بزيارة, نعمْ، سوفَ تزورُ الليل, وسَترى كمْ هوَ جميلٌ ورائع!

تعلَّقَ الفأرُ السنجابيُّ الصغيرُ بريشِ «بومي» في الأجواءِ الفسيحةِ وسألَها بفضول: ما هوَ هذا الشيءُ الأحمرُ البعيدُ هناك؟

ردَّتْ «بومي» دهِشة: إنّها الشمسُ ساعةَ غروبِها، أيْ نومِها. ألا تعرفُ ذلك!؟

لكنْ منْ أينَ يعرفُ ما هيَ الشمسُ الغاربة؟ إنّهُ يكونُ في ذلكَ الوقتِ تحتَ ذقنِ أبيهِ أوْ بينَ ذراعيْ أمّه.

وقالَ هامِساً ودهِشاً وبصوتٍ خفيض : هل تنامُ الشمسُ أيضا؟

- إنَّها في الواقعِ تذهبُ لتضيءَ الجانبَ الآخرَ منَ الأرضِ منْ أجلِ فئرانٍ سنجابيّةٍ صغيرةٍ أُخرى, بينَما يكونُ الليلُ لنا في ذلكَ الوقت . هيّا تعالَ الآن .

حلّقَ الاثنانِ فوقَ القريةِ والريفِ الجميلِ, وتسلّلا بينَ أَشجارِ الجُمّيزِ المرتفعة ،

وصعَدا فوقَ هاماتِ النخيلِ وشجرِ التّفاح, وقابَلا في طريقِهِما كثيراً من الخَفافيشِ فحيَّتْهم «بومي» بمرحٍ وهيَ تصيحُ «هـــــــوه هــــــوه» !

وأخيراً هبطتْ «بومي» وبدأتْ تُرتِّبُ ريشَها الذي نكَشَهُ الهواء . في الحقيقةِ كانتْ

هذهِ الفسحةُ رائعة, لكنَّ الفأرَ الصغيرَ معَ ذلكَ كانَ يفضِّلُ الأرضَ الثابتةَ أكثر . وبدتْ الحشائشُ لهُ أنعمَ وأرقَّ منْ أيِّ وقتٍ آخر, فأخذَ يقومُ بقَفَزاتٍ صغيرةٍ ويتشقلبُ بسعادةٍ غامرةٍ حتّى وجدَ نفسَهُ فوقَ بساطٍ منْ ثمارِ التوتِ فقالَ بإعجابٍ وهوَ يأكلُ أكثرَها احمراراً : يا للمذاقِ الحلوِ, والعطرِ الزكيّ!

وتناهى إلى سمعِهِ غناءُ بلبل, فرفعَ رأسَهُ ليراه ، وظلَّ أنفُهُ هكذا في الهواءِ فترةً غيرَ قصيرة, ثم قالَ محدِّثاً نفسَه : في النهاية, لونُ الليلِ ليسَ هوَ الأسود ، بل الأزرق ، وهوَ يمتلئُ بالنّجوم .

فجأةً شعرَ الفأرُ السنجابيُّ الصغيرُ بحفيفِ أقدام . إنَّها كوكبةٌ منَ الأرانبِ الصغيرةِ تتدافعُ أثناءَ مرورِها به . قالَ أصغرُهم : هلْ تأتي معَنا لنعلبَ ونلهوَ معاً؟ وأخذَ الجميعُ يرقصونَ ويتقافزونَ تحتَ ضوْءِ القمر .

فردَتْ البومةُ جناحيْها وقالتْ : لا بدَّ أنْ نعودَ الآن!

كمْ كانتْ دهشةُ الأبوينِ كبيرةً وهمَا يريانِ الفأرَ السنجابيَّ الصغيرَ يعودُ إلى البيتِ عندَ بزوغِ الفجرِ وهوَ مبتهجٌ وسعيد! وبشيءٍ من الفخرِ ، وبابتسامةٍ ماكرةٍ قالَ الفأرُ

السنجابيُّ الصغيرُ لأَبيه : تستطيعُ الآنَ أن تقصِّرَ ذقنَكَ لو شئت, فقدْ أصبحتُ كبيراً الآن، ولستُ في حاجةٍ إلى الاختباءِ تحتَها !

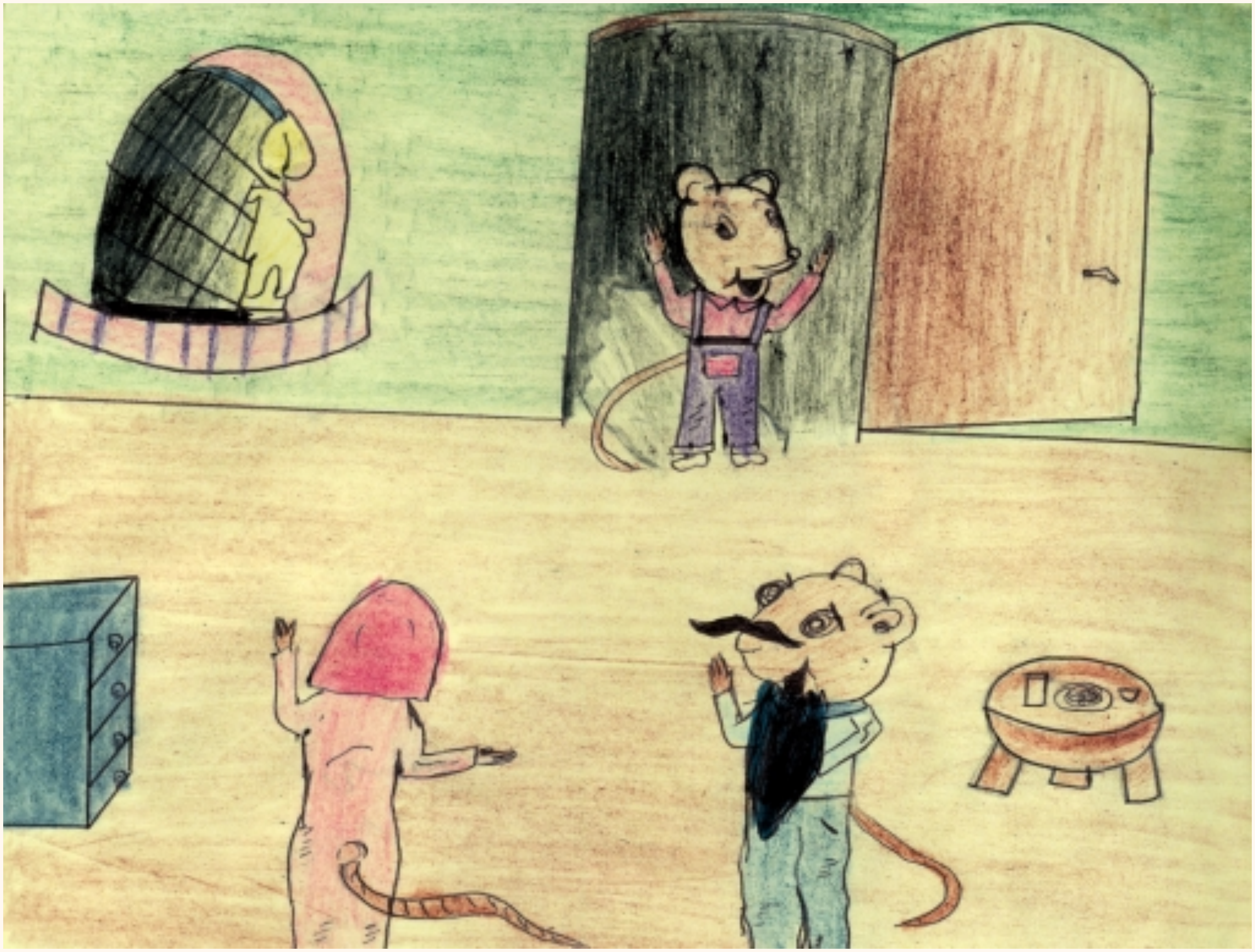

الحواجز

الاسم (١) : فاطمة ماضي
الاسم (٢) : نيبال ماضي
العمر : ١٢

كانَ طفلٌ يعاني منْ إَعاقةٍ عقليّة، كلُّ منْ يراهُ يُحبُّهُ ويرتاحُ إِليه، وخصوصاً لصغرِ سنِّه الذي لا يتعدّى الإثني عشرَ عاما. ذهبَ في أحدِ الأيّامِ معَ جدّتِهِ إلى المدينة، وهناكَ اشترى ما شاءتْ نفسُه أنْ تشتريَه، ووضَعَهُ في كيس صغير، وأقفَلَهُ عائداً معَ جدّتِهِ، قاصِداً

قريتَهُ الوادعةَ التي لا يُنغِّصُ عليها شيءٌ سوى الحاجزِ اللعينِ المقامِ على مدخلِها، والذي يُجبِرُ الناسَ على النّزولِ من سياراتِهم، ليصطفّوا في صفوفٍ طويلةٍ في انتظارِ التفتيش، والسماحِ لهمْ بالانتقالِ إلى السيّاراتِ التي تنتظرُهمْ على الجانبِ الأخرَ منه.

ومرَّتِ الجدّةُ دونَ تفتيش، لكونِها امرأةً طاعنةً في السنّ. وعندَما حاولَ الصبيُّ اللحاقَ بها دونَ أنْ يقفَ على الدورِ كبقيّةِ الخلق، كانَ الجنودُ لهُ بالمرصاد. وحاولَ أحدُهمْ تفتيشَهُ وفحصَ ما يحتويهِ الكيس، لكنَّ الصبيَّ رفضَ أن يفتحَ الكيس، واضعاً إيّاهُ خلفَ ظهرِه.

وعندَما أصرَّ الجنديُّ على فتحِ الكيسِ بمساعدةِ آخرَ شهرَ سلاحَهُ في وجهِ الصبيّ، وسطَ صراخِ الجدةِ بأنَّ هذا الصبيَّ معاق، ازدادَ الطفلُ عناداً، وازدادَ الجنودُ إصرارا، فحاولَ عددٌ من الناسِ المستمرّينَ في الدّورِ في انتظارِ فحصِ بطاقاتِهم، أن يقنعوا الجنودَ بأنَّ هذا الصبيَّ قواهُ العقلية بسيطة، لكنَّ الجنودَ خيّروهم بينَ إعادةِ الصبيِّ أو إقناعِهِ بتفتيشِ الكيس.

استبسلَ الصبيُّ في الدفاعِ عن حُرمةِ كيسِه، مما جعلَ أحدَ النابهينَ يخطِفُ الكيسَ منْ يدِ الطفل، طالباً منْ أحدِ الواقفينَ الإمساكَ به، ريثما يتمُّ تفتيشُ الكيس.

صاحَ الصبيُّ وشتمَ وزمجر، ولكنْ ما هيَ إلا لحظاتٌ حتّى أسفرتِ العمليةُ عنْ مفاجآتٍ أوقعتِ الجنودَ في حالةٍ منَ الذهول، لأنَّ الكيسَ لمْ يكنْ يحتوي إلا على ساندويشة شاورما وعلبةٍ من العصير.

صاحَ الصبي: لا تأكلوها. لا تأكلوها.

ضحكَ الناسُ كثيرا، وبهتَ من أدارَ عقلَهُ بعقلِ طفلٍ بسيط، فرحَ كثيراً بما أشترتْه لهُ جدَّتُه، لكنَّ فرحةَ المسكينِ قتلتْها الحواجز.

مذكرات أصيل

الاسم : فداء جمال أبو الليل

العمر : ١١ سنة

المدينة : رام الله

. . . . . «نعم، نعم، إذنْ لا تريدينَ الذهابَ إلى النزهةِ اليوم! آه منك، غداً سوفَ ترين، حسناً حسناً، عليَّ إغلاقُ سماعةِ الهاتفِ الآن، أمّي تناديني . . . . . هيّا، إلى اللقاء» .

ـ نعمْ يا أمي .

ـ هيا إلى غرفتِك وراجِعي دروسَك .

ـ لا ، لا ، لا يا أمي . كانتْ معلمةُ العربيِّ اليومَ غائبة ، ومعلمةُ الحسابِ متعبَة ، فلمْ نأخذْ درساً جديداً ، أمّا معلمةُ . .

ـ اسكتي، اسكتي، هيا ذاكري دروسَكِ دونَ نقاشٍ وإلا . . .

ـ و إلا، وإلا ماذا؟

ـ حسام، تعالَ يا حسامُ وانظرْ إلى أختِكَ أصيل، لا تريدُ أنْ تدرس.

ـ حسناً حسناً، أنا ذاهبةٌ لأدرس، لكنْ دون أنْ تنادي أخي.

دخلتُ غرفتي غاضبة، أريدُ أنْ أبكي، وفتحتُ الكتبَ بطريقةٍ سيئة، حتّى أنّها كادتْ تتمزّقُ في يدي، وبدأتُ أنظرُ إلى الدرس، ولم يكنْ ذلكَ إلا نظراً وحسب، لأنّي لم أقرأْ كلمة، حتى اسمَ الدرسِ ذاتَه.

كنتُ في تلكَ اللحظةِ غاضبة، لا أفكِّرُ إلا في أنّهم يريدونَ التخلُّصَ منّي، وعدمَ التدخلِ في حواراتِهم. ولمْ أكنْ أدري أنّهمْ يريدونَ مصلَحتي في ذلكَ الوقت.

كنتُ غبيةً حينَ أفكِّرُ في ذلك، لكنَّها أفكاري.

كثيراً ما كنتُ أنظرُ إلى كتبِ المدرسةِ على أنّها كتبٌ تافهةٌ لا فائدةَ منْها. كنتُ لا أُدركُ حينَها أنّها ذاتَ قيمةٍ عاليةٍ، وأنّها كنزٌ ثمين.

أصيل

وذاتَ يوم، طلبتْ منّا معلمةُ مادةِ العربيّ إعدادَ معلوماتٍ عن الفروسيةِ العربيّة، فذهبتُ إلى البيت، وحملتُ ورقةً وقلماً، وتوجّهتُ إلى أمّي وقلتُ لها:

ـ هيا يا أمي، إمْلي عليَّ ما تعرفينَ عن الفروسيةِ العربيّة.

ـ ماذا؟ الفروسيةُ العربية؟ اذهبي إلى أخيكِ، فأنا لا أعرفُ الكثير عنها.

وذهبتُ إلى أخي حسامٍ وقلتُ له:

ـ أخي حسام، من فضلِكَ يا أخي أن تمليَ عليَّ ما تعرفُ عنِ الفروسيةِ العربية.

ـ الفروسيةُ العربيّة! متأسفٌ يا أُختي، لا أعرفُ الكثيرَ عنِ الفروسيةِ العربية، وأنتِ تريدينَ تقريراً كاملاً. سوفَ آخذُكِ إلى المكتبة، وهناكَ ستجدينَ ما تريدين، وأنا مستعدٌ لقراءةِ الكتابِ من بعدِك.

خرجتُ منْ غرفةِ أخي بائسة. شعرتُ بأنّهُ طلبَ منّي شيئاً مستحيلاً، فأنا لم أذهبْ إلى المكتبةِ قبلَ ذلك، إلا من أجلِ قراءةِ كتبِ الفكاهاتِ والطرائف، وليسَ للحصولِ على موضوع.

رجعتُ إلى غرفتي، رميتُ الورقةَ والقلمَ وقلتُ في نفسي: سأقولُ لمعلمةِ العربيّ إنّني حاولتُ ولم أجد.

وبعدَ ساعةٍ تقريباً، طُرِقَ بابُ غرفتي. كانَ أخي حسام.

ـ أصيل، هيا ارتدي ملابسَك، سأرافقكِ إلى المكتبة. هيا بسرعة.

ظهرتْ على وجهي علاماتُ العبوسِ وأنا أقولُ في نفسي: أنا لا أحبُّ الكتب. لا أحبُّ الكتب، فكيفَ سأدخلُ مكاناً ليسَ فيهِ إلا الكتب؟

لبستُ ملابسي، وأوصلَني أخي إلى المكتبةِ وقالَ لي: سوفَ أرجعُ بعدَ ساعةٍ ونصفِ الساعة، هلْ هذا جيدٌ وكاف؟ قلتُ له: حسناً، لكنْ لا تتأخرْ. أما في داخلي فقدْ كنتُ أقول: لا، لا، ارجعْ بعد خمسِ دقائق.

دخلتُ المكتبةَ وذهبتُ إلى قسمِ القصصِ وأمسكتُ بكتابِ الفكاهاتِ والطرائف، وفتحتُ على صفحةٍ عشوائية، فإذا بنكتةٍ تتكلمُ عن المعلم، فرأيتُ نفسي أمامَ معلِّمتي أفتح يديْ مستعدةً للعقابِ بالعصا، وأمّي وأخي حسامٌ يصرخانِ في وجهي، فاضطررتُ إلى إغلاقِ كتابِ الفكاهات.

عبسَ وجهي وانعقدَ لساني، وذهبتُ عندَ أمينِ المكتبةِ وقلتُ له:

ـ من فضلِكَ يا عمّي، هل عندكَ كتابٌ يتكلَّمُ عنِ الفروسيةِ العربية؟

ـ الفروسيةُ العربية؟ نعمْ، تعاليْ يا ابنتي.

معَ أنني كنتُ أتمنّى أن يقولَ لي: لا، ليسَ عندي كتابٌ عنْ ذلك.

أوصلَني إلى مكانٍ في المكتبةِ وقالَ لي: اصعدي على السلّمِ لكيْ تجديه، إنّهُ في الرفِّ العالي، وستجدينَهُ وحدَهُ في الرَّف.

وذهب.

ركبتُ السلَّمَ لإحضارِ الكتاب.

ـ ها هو. لقدْ رأيتُه. أخذتُهُ وأنزلتهُ وجلست.

عندما رأيتُهُ أحسستُ بأنَّها نِهايتي. كانَ كتاباً ضخماً في الطولِ وفي العرضِ وعدد الصفحات، حتى غلافُهُ كانَ لونُهُ بنيا، وأنا لا أُحبُّ هذا اللون. ولم أعرفْ عنوانَهُ قبلَ أنْ أزيلَ الغبارَ الذي كانَ يُغطّيه. حقّاً شعرتُ بأنّها نهايتي.

بدأتُ في قراءةِ الكتاب: «. . . . . لم تكنِ الفروسيةُ العربيةُ في الجاهليةِ مؤسسةً دينيةً ولا اجتماعية. . . . » ثم توقفتُ وبدأتُ بالتثاؤب. وعندما أغمضتُ عينيَّ لمْ

أفتَحْهُما، لأنّني غططتُ في نومٍ عميق، بسببِ درجةِ الهدوءِ في المكتبة، فإذا بي أحلم. رأيتُ نفسي على فرسٍ عربيّةٍ رشيقةٍ تقفزُ منْ فوقِ رؤوسِ الحرابِ وتبتعدُ عن السّهام. كنتُ أرتدي خوذةً وبيدي سيفٌ ودرع، وكانَ المضحكُ في حلمي أنَّ الخوذةَ أكبرُ من رأسي، وكانتْ تنزلُ على عينيَّ فلا أرى، وإذا بي أسقطُ عن فرسي. قلتُ لها: تعاليْ.. تعاليْ يا فرسي، إلى أينَ تذهبين؟ لا تتركيني وحدي وسطَ المعركة. فإذا بجنديٍّ يقتربُ منّي ويقول: هيا انهضي، انهضي وأكملي معركتك، هيا انهضي.

وفجأةً سمعتُ أمينَ المكتبةِ يوقِظُني من نومي ويقول لي: هيا انهضي، فنهضتُ من نومي.

استعرتُ الكتاب، وفي البيتِ فتحتُه. بدأتُ بالتلخيص، وحضّرت التقريرَ الذي أحتفظُ بهِ حتى الآن. كانَ أولَ تقريرٍ أكتبُهُ بنفسي. كانَ تقريراً رائعاً أذكرُ أنّني أخذتُ عليهِ درجةً عالية. كنتُ أشعرُ بالفخر. أحسستُ بأنّني فعلتُ شيئاً لا يستطيعُ أيُّ شخصٍ فعله، فاعتبرتُ ذلكَ اليومَ بدايةَ نمطِ الحياةِ الجديد: الكدُّ في عملٍ ما هو واجبٌ عليّ، لأنَّ المعركةَ الحقيقيةَ تكونُ في العملِ والجدِّ والنظافةِ والحياء. والحياةُ ليستْ فقطْ في الفكاهات والطرائفِ والإهمال، فهناكَ وقتٌ للعملِ ووقتٌ للفكاهاتِ واللعب، وليستْ كلُّ أوقاتِ الفراغِ للعبِ، بلْ للثقافةِ أيضاً.